السياق القرآني وأثره في "التفسير الوسيط" للطنطاوي رحمه الله

The Qur'ānic Context in 'Allāmā Ṭanṭāwī's "Tafsīr al-Wasīṭ" and Its Impacts

*عبد الواحد

**دكتور عتيق الرحمٰن

ABSTRACT

The 'context' plays a pivotal role in the interpretation of the Qur'ān. That is why it is considered as the most important principle of Qur'ānic sciences, and if an interpreter does not take care of it, he falls into a wrong ditch. Consequently, the scholars of exegesis used context in various aspects and determined the understanding of the coherence of Qur'ān. Thus, the major focus of this article has been upon the Qur'ānic context. The article explores the linguistic and terminological meanings of 'Context', its importance and emphasizes that the scholars of exegesis should adopt 'context' as a source of Qur'ānic hermeneutics. The topic has been elaborated and interpreted in the light of the interpretation of 'Allāmā Ṭanṭāwī's al-Tafsīr al-wasīṭ lil-Qurʾān al-karīm. His interpretation is considered among the authentic exegesis of the modern-day.

KEYWORDS:

Qur'ānic Context, al-Tafsīr al-wasīṭ, Allama Ṭanṭāwī's exegetical approach.

الحمد لله الّذى نصب للحق دليلاً، والصّلاة والسّلام على النّبى الأمين، أعلم النّاس بمراد الله تعالى، وعلىٰ صحابته الكرام رضوان الله عليهم و علي من تبعهم بإحسان- وبعد!" فلدلالة السياق القرآني أهمية كبيرة في تفسير كلام الله —سبحانه وتعالى— فهي أصل أصيل من أصول هذا العلم، وبدونها يضع المفسر قدمه على عتبات الزلل "، لذلك المفسّرون قد استخدموا السّياق في كثير من المجالات وله دور كبير فى كشف عن المعاني، فقد ركز البحث على هذا، ويتناول البحث تعريف السياق لغة واصطلاحا، وأهميته واهتمام المفسرين به، ويدرس هذا الموضوع من خلال "التفسير الوسيط للقرآن الكريم" للطنطاوي . رحمه الله . الّذى يعتبر من أجلّ التّفاسير المعاصرة، سيكون تقديم البحث في صورة مبحثين وخاتمة.

* الباحث بمرحلة الدكتوراه، والأستاذ الزائر في قسم التفسير وعلوم القرآن، بكلية أصول الدين، الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد.

** أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية، جامعة الهندسة والتكنولوجيا، لاهور.

ترجمة موجزة للشيخ العلامة الطنطاوي

اسمه ومولده:

هو "محمد سيد طنطاوي"، ولد الشيخ طنطاوي بقرية سليم الشرقية مركز طما محافظة سوهاج في 28 أكتوبر 1928 م. [1]

حياته العلمية:

قد تلقى الشيخ تعليمه الأساسي بقريته وحفظ القرآن الكريم ثم التحق بمعهد الإسكندرية الدينى سنة 1944م وبعد انتهاء دراسته الثانوية التحق بكلية أصول الدين وتخرج منها سنة 1958م ثم حصل على تخصص التدريس سنة 1959م ثم حصل على الدكتوراه في التفسير والحديث بتقدير ممتاز في 5 سبتمبر 1966م، عين مدرسا بكلية أصول الدين سنة 1968م ثم عميدا لكلية أصول الدين بأسيوط سنة 1976م ثم عميدا لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين سنة 1985م ثم مفتيا لجمهورية مصر العربية في 28 أكتوبر 1986م ثم عين شيخا للأزهر الشريف في 8 من ذى القعدة سنة 1416هـ الموافق 27 من مارس 1996م.

وأعير خلال عمله بجامعة الأزهر إلى الجامعة الإسلامية بليبيا لمدة 4 سنوات من سنة 1972 م إلى سنة 1976م ثم رئيسا لقسم التفسير بالدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من سنة 1980م إلى 1984م، وعين مفتيًا للديار المصرية في 28 أكتوبر 1986م، وفي 27 مارس 1996م عين شيخًا للأزهر.[2]

نبذة عن مؤلفاته:

1- " **التفسير الوسيط للقرآن الكريم**"، "هذا التفسير في أكثر من خمسة عشر مجلدا وفي أكثر من سبعة آلاف صفحة من القاطع الكبير وقد طبع هذا التفسير عدة طبعات آخرها طبعة دار المعارف سنة 1993 ميلادية وقد كتبه في بضعة عشر عاما وقد بذل فيها أقصى جهده ليكون تفسيرا محررا من الأقوال الضعيفة والشبه الباطلة والمعانى السقيمة والآراء التى لا سند لها من النقل الصحيح أو العقل السليم وكان منهجه البدء في شرح الألفاظ القرآنية شرحا لغويا مناسبا ثم بيان سبب النزول إن وجد وكان مقبولا ثم ذكر المعنى الإجمالى للآية أو الآيات ثم تفصيل ما اشتملت عليه الآية أو الآيات من وجوه بلاغية ومن أحكام شرعية ومن آداب سليمة وعظات بليغة وتوجيهات حكيمة مدعما كل ذلك بالآيات الأخرى وبالأحاديث النبوية الشريفة ومن أقوال المحققين من علماء السلف والخلف وقد توخى في هذا التفسير أن يكشف عما اشتمل عليه القرآن الكريم من هدايات جامعة ومن تشريعات جليلة وآداب فاضلة وأخبار صادقة، إن التفسير الذى اجتمع فيه طرافة القديم وجدة الحديث وتحرير المعنى وسهولة اللفظ وهو المفتاح الذى يكشف للقارئ عما في كتاب الله تعالى من هدايات وآداب وأحكام توصل متبعها إلى السعادة في دنياه وآخره".

2-"بنو إسرائيل في القرآن الكريم"، 3-"معاملات البنوك أحكامها الشرعية"، 4- "الدعاء"، 5-"السرايا الحربية في العهد النبوى"، 6- "القصة في القرآن الكريم"، 7-" آداب الحوار في الإسلام"، 8-"الاجتهاد في الأحكام الشرعية"، 9- " أحكام الحج والعمرة"، 10-"الحكم الشرعى في أحداث الخليج"، 11- "تنظيم الأسرة ورأى الدين فيه"، 12- "مباحث في علوم القرآن الكريم"، 13- " العقيدة والأخلاق"، 14- " الفقه الميسر"، 15- "عشرون سؤالا وجوابا" 16- "فتاوى شرعية"، 17- " المنهج القرآني في بناء المجتمع "، 18- "المرأة في الإسلام ".

وفاته:

توفي الشيخ – رحمه الله – صباح يوم الأربعاء 24 ربيع الأول 1431 هـ الموافق 10 مارس 2010م في الرياض عن عمر يناهز 81 عاما إثر نوبة قلبية تعرض لها في مطار الملك خالد الدولي عند عودته من مؤتمر دولي عقده الملك عبد الله بن عبد العزيز لمنح جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام للفائزين بها عام 2010. وقد صليَّ عليه صلاة العشاء في المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة ووري الثرى في مقبرة البقيع [3] [4].

المبحث الأوّل: مفهوم السياق وأهميته واهتمام المفسرين به

من المعلوم بديهيا أن ما يتطلبه البحث العلمي الدقيق تحديد المصطلحات الموجودة في البحث، لذلك نعرفها أولا، ففي هذا البحث أمور:

الأمر الأول: "تعريف السياق لغة"

كلمة "سياق" هي: "سواق، فقلبت الواو ياء لكسرة السين، وهما مصدران من ساق يسوق". قاله ابن الأثير [5] –رحمه الله–، وقال ابن فارس [6] –رحمه الله–: "السين والواو والقاف أصل واحد، وهو: حدو الشيء يقال: ساقه يسوقه سوقا، والسَّيِّقة: ما استيق من الدواب، ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها وأسقته. والسُّوق مشتقة من هذا; لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سوق، وإنما سميت بذلك لأن الإنسان ينساق عليها... وسوق الحرب: حومة القتال "[7] وقال الأزهري [8] –رحمه الله– نقلا عن أبي عبيد [9] –رحمه الله–: "تساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت وكذلك تقاودت"[10]، وفي المعجم الوسيط [11]: "سياق الكلام: تتابعه، وأسلوبه الذي يجري عليه" [12]

فمما ذكر نجد أن معظم هذه التعريفات والاستعمالات تدور حول معنى: " التتابع والتوالي والجمع والاتصال والتسلسل، فسوق الإبل والدواب من تتابعها واتصالها ببعضها، فاستخدم بعد ذلك في الدراهم والدنانير، وكذا السُّوق لما يجمع إليه ويتابع عليه من البضائع، وكذا سياق المريض فكأن الروح تجمع وتنساق لتخرج من البدن، فيه معنى الاتصال والتسلسل، وسياق الكلام من توالية وتتابعه وتسلسله".

الأمر الثاني:" تعريف السياق اصطلاحا":

"قد اختلف الباحثون في تعريف السياق اصطلاحا، رغم أنه منصوص عليه منذ القدم، وسبب اختلاف الباحثين في هذا أن المتقدمين لم يذكروا تعريفه الاصطلاحي بالصراحة، وإنما ذكروا أهميته وبعض آثاره كالترجيح وغيره، لذالك ذكر الباحثون أكثر من قول فى مفهوم السياق القرآنى فيرى بعض الباحثين أن دلالة السياق القرآني مقصورة على المقال دون الحال وهو ما يسميه أهل اللغة " "بالسياق اللغوي"، فقال الباحث/ عبد الحكيم القاسم –وفقه الله– السياق بأنه: "تتابع الكلام وتساوقه وتقاوده ". ويعرف دلالة السياق بأنها: "فهم النص بمراعاة ما قبله وما بعده"." ويعرف دلالة السياق في التفسير: "بأنها بيان اللفظ أو الجملة في الآية بما لا يخرجها عن السابق واللاحق إلا بدليل صحيح يجب التسليم له "[13].

وعرف الباحث/ د. المثنى عبد الفتاح محمود السياق القرآني بأنه: "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال "[14]. ومن العلماء المتأخرين قال الشيخ البناني [15] فى حاشيته على جمع الجوامع: "قرينة السياق: هي ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه" [16]. فمما سبق ممكن أن يعرف السياق بأنه: "تتابع المفردات والجمل والتراكيب المترابطة لأداء المعنى، ويكون السياق القرآني: تتابع المفردات، الكلمات والجمل والتراكيب القرآنية المترابطة لأداء المعنى، ودلالة السياق القرآني: بيان المعنى من خلال تتابع المفردات والكلمات الجمل والتراكيب القرآنية المترابطة" وأيضا "فقد دون علم أصول الفقه منذ القرن الثاني، وفيه ما يسمى بقرائن الأحوال، فلم نحتج لإدخال الحال في السياق، لأنه ليس منه حقيقة، وإن كان يتوقف فهم المقال عليه غالبا ولأنه مخدوم كدلالة مستقلة".

الأمر الثالث: أهمية السياق القرآني

لدلالة السياق القرآني أهمية كبيرة في تفسير كلام الله –سبحانه وتعالى– " فهي أصل أصيل من أصول هذا العلم، وبدونها يضع المفسر قدمه على عتبات الزلل، ويركب مراكب الخلل، ولا شك إن مفردات اللغة العربية واسعة الدلالة، فلا يتحدد المراد من المفردة العربية إلا إذا نظر إليها في ضوء سياقها، فحينئذ تتَّضح معالمها، وينتفي تعدد المعاني واشتراكه وتعميمه، ويقطع بإرادة أحد معانيها المحتملة"، فهناك مطلبان ثابتان:

المطلب الأول: " دلالة السياق القرآني تعتبر من تفسير القرآن بالقرآن ".

المطلب الثاني: " إعمال النبي –صلى الله عليه وسلم– لدلالة السياق القرآني"، وإعداده صلى الله عليه وسلم في التفسير.

ولا نطيل الكلام في هذا فقط نقول: "دلالة السياق معتبرة في الشريعة الإسلامية، حيث إنها هي مرتبطة باللغة العربية ارتباطا قويا منذ القدم، فلا يفهم الكلام عند العرب إلا ضمن سياقه، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب"، يقول الله تعالى: "وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ " [17] "والنبي ﷺ أفصح العرب، وأعلمهم بدلالات ألفاظ العربية"، يقول الإمام الشافعي- رحمه الله -: "ولسان العرب أوسع الألسنة دينا، وأكثرها ألفاظا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي، ولكنه لا يذهب منه شيء على عامتها، حتى لا يكون موجودا فيها من يعرفه"[18]، "وقد ثبت عن النبي–صلى الله عليه وسلم– اعتبار هذه الدلالة – أي السياق – واستخدامه لها مما يدل على أهميتها وأصالتها"، فمن ذلك: عن ابن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال: لما نزلت هذه الآية: "**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ**" شقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله: أينا لا يظلم نفسه؟ فقال ﷺ: "ليس ذلك إنما هو الشرك. ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه وهو يعظه: "**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**" [19] رواه البخاري ومسلم [20]. فههنا استخدم الرسول — صلى الله عليه وسلم — "دلالة السياق القرآني لبيان المعنى، ثم نبه على أنه قد يطلق الظلم ويراد به الشرك كما في قول لقمان لابنه": "**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**" فيدل سياق الآية على أن المراد بالظلم هنا الشرك.

الأمر الرابع: اهتمام المفسرين بالسياق

قد اهتم المفسرون بدلالة السياق القرآني منذ القدم، وما يدل على أهمية دلالة السياق القرآني في تفسير كلام الله – عز وجل – "اعتبارها عند الصحابة —رضي الله عنهم—كأصل من أصول التفسير، وإعمالهم لها في تفسير كلام الله تعالى فهي تستمد أهميتها بإعمال الصحابة لها من أهمية تفسيرهم، إذ هو الأصل الثالث من أصول التفسير بعد تطلُّبه من القرآن نفسه ثم من السنة النبوية"، يقول شيخ الإسلام" ابن تيمية" – رحمه الله– في بيان كيفية الكشف عن حقيقة المعنى: "فتأمل ما قبل الآية وما بعدها يطلعك على حقيقة المعنى"[21] وما قبل الآية و بعدها هو السياق بشقيه: "السباق واللحاق". وقال الإمام "الزركشي" [22] —رحمه الله— في ما لم يرد فيه نقل عن المفسرين: "وطريق التوصل إلى فهمه: النظر إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب ومدلولاتها، واستعمالها بحسب السياق"[23]، وذكر —رحمه الله— في بيان ما يعين على معرفة المعنى عند الإشكال: "دلالة السياق"[24]، وقال الشيخ ولي الله الدهلوي [25]–رحمه الله—: " ولا بد للمفسر العادل أن ينظر إلى شرح الغريب نظرتين، ويزنه وزنا علميا مرتين: مرة في استعمالات العرب حتى يعرف أي وجه من وجوهها أقوى وأرجح، ومرة ثانية في مناسبة السابق واللاحق بعد إحكام مقدمات هذا العلم، وتتبع موارد الاستعمال، والفحص عن الآثار، حتى يعلم أي صورة من صورها أولى وأنسب "[26]، وبين الشيخ محمد رشيد رضا [27] – رحمه الله– أن دلالة السياق أفضل قرينة تؤدي إلى حقيقة معنى اللفظ بقوله: "وقد قالوا: "إن القرآن يفسر بعضه ببعض، وإن أفضل قرينه تقوم على حقيقة معنى اللفظ: موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته" [28]. والملخص "ليس المقصود في هذا المبحث حصر أقوال أهل العلم في هذا الشأن، إذ الحصر متعذر، وإنما بيان اهتمام العلماء بدلالة

السياق، واتخاذهم لها كمنهج مأمون في تفسير كلام الله –عز وجل–، وبيان شيء من آثارها، وأنها تنقل الدلالة من الظهور إلى النصية، وأن من يهمله يكون الخطأ والغلط حليفه، ويجانب الصواب على الدوام".

المبحث الثاني: النماذج من "التفسير الوسيط للقرآن الكريم" بشأن السياق القرآني عند الشيخ الطنطاوي.

المثال الأوّل: قال الله عزّ وجلّ:

"وَقَالَ الَّذِيْنَ لَا يَعْلَمُوْنَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللّٰهُ اَوْ تَاْتِيْنَآ اٰيَةٌ ؕ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ؕ تَشَابَهَتْ قُلُوْبُهُمْ ؕ قَدْ بَيَّنَّا الْاٰيٰتِ لِقَوْمٍ يُّوْقِنُوْنَ"[29]

قال الشيخ الطنطاوي تحت هذه الآية الكريمة: "هذا، وبعض المفسرين يرى أن المراد «بالذين لا يعلمون» اليهود، وبعضهم يرى أن المراد بهم مشركو العرب وبعضهم يرى أن المراد بهم النصارى، ونحن نرى أن اللفظ صالح لأن يندرج تحته جميع هذه الطوائف قضاء لحق الموصول المفيد للتعميم، ولكنا نختار أن اليهود هم المقصودون قصدا أوليا من هذه الآية للأسباب الآتية":

1- "الآية ضمن سلسلة طويلة من الآيات السابقة عليها واللاحقة لها، وكلها تتحدث عن بنى إسرائيل وأحوالهم وأخلاقهم".

2- "جملة كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم قرينة على أن المقصود بالذين لا يعلمون هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي، حيث كان أجدادهم يطلبون من موسى مثل هذه المطالب، لقد قالوا له: " لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة " وقالوا: " أرنا الله جهرة " وطلبوا منه كثيرا من المطالب المتعنتة".

3- "الآية مدنية ومن سورة البقرة التي هي من أوائل ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، ومن المعروف أن حديث القرآن المدني عن أهل الكتاب بصفة عامة، وعن اليهود بصفة خاصة، أكثر من حديثه عن مشركي العرب، لأن البيئة المدنية صلتها بأهل الكتاب أشد وألصق- سبب نزول الآية الذي ذكرناه يؤيد أن اليهود مقصودون قصدا أوليا في هذه الآية".

4- "القائلون بأن المراد بالذين لا يعلمون مشركو العرب، دعموا قولهم بأن آيات القرآن التي تحكى عنهم أمثال هذه المقترحات مستفيضة. وكأنهم يستبعدون أن تصدر مثل هذه الأسئلة عن اليهود، وردنا عليهم أن القرآن الكريم قد حكى عن اليهود" أمثال هذه الأسئلة بدليل قوله تعالى:

"يَسْـَٔلُكَ اَهْلُ الْكِتٰبِ اَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ فَقَدْ سَاَلُوْا مُوْسٰٓى اَكْبَرَ مِنْ ذٰلِكَ فَقَالُوْٓا اَرِنَا اللّٰهَ جَهْرَةً فَاَخَذَتْهُمُ الصّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنٰتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذٰلِكَ ۚ وَاٰتَيْنَا مُوْسٰى سُلْطٰنًا مُّبِيْنًا"[30]

5- "الإمام ابن جرير رجح أن المراد ب الذين لا يعلمون النصارى، مستدلا بأن ذلك في سياق خبر الله عنهم، فالآية السابقة على هذه الآية تقول": "وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾" [31] والنصارى هم الذين قالوا ذلك، وهذا الاستدلال لا نوافقه عليه لما يأتي:

أ. "لأن الآية ليست في سياق خبر الله عن النصارى، وإنما هي في سياق خبر الله عن اليهود، الذين زخرت سورة البقرة ببيان مواقفهم وحجاجهم وأخلاقهم في أكثر من مائة آية سابقة ولاحقة من هذه السورة".

ب. "ليس النصارى وحدهم هم الذين قالوا اتخذ الله ولدا وإنما اليهود أيضا قالوا ذلك"، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ [32].

ج. "لم يأت الإمام ابن جرير بدليل واحد ينقض به رأى القائلين بأن المراد بالذين لا يعلمون اليهود، ولم يتعرض للنص الذي أورده ابن عباس في سبب نزول الآية بالتضعيف أو الإعلال، مع أنه انتقد رأى القائلين بأن المراد بهم مشركو العرب (بأنه قول لا برهان على حقيقته في ظاهر الكتاب)، هذا وبعد تلك الأدلة على ما ذهبنا إليه نعود فنقول مرة أخرى: إننا لا نمانع في أن يكون المراد بالذين لا يعلمون جميع الطوائف المشركة ولكنا نرجح أن اليهود هم المقصودون قصدا أوليا مهما دخل غيرهم معهم في السياق، وإن الآية قد نزلت للرد على مطالبهم المتعنتة واقتراحاتهم التي لا خير من ورائها، ومحاولاتهم الطعن في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم" [33]

الحاصل من كلام الشيخ أن الآية الكريمة نزلت في اليهود والمراد من "الذين لا يعلمون" اليهود في الآية، وليس المراد النصارى، كما قال بعض أهل العلم، ورجح الشيخ أحد الأقوال التفسيرية بدلالة السياق القرآني وهو "أن اليهود هم المقصودون قصدا أوليا مهما دخل غيرهم معهم"، فإن سياق الآية يدل على أن الله سبحانه وتعالى يخبر عن اليهود وكما نقد الشيخ الطنطاوي رأي الشيخ ابن جرير الطبري بدلالة السياق القرآني، والذي يتبين أهمية السياق القرآني في التفسير.

المثال الثاني: قال الله عزّ وجلّ:

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ" [34]

قال الشيخ الطنطاوي تحت هذه الآية الكريمة: "والمعنى: ومن الناس فريق يروقك منطقهم، ويعجبك بيانهم، ويحسن عندك مقالهم. فأنت معجب بكلامهم الحلو الظاهر، المر الباطن، وأنت في هذه الدنيا لأنك تأخذ الناس بظواهرهم، أما في الآخرة فلن يعجبك أمرهم لأنهم ستنكشف حقائقهم أمام الله الذي لا تخفى عليه خافية، وسيعاقبهم عقابا أليما لإظهارهم القول الجميل وإخفائهم الفعل القبيح، وعلى هذا التفسير

يكون قوله: "في الحياة الدنيا" متعلقا ببيعجبك، وبعضهم يجعل قوله "في الحياة الدنيا" متعلقا بالقول، "فيكون المعنى عليه ومن الناس فريق يعجبك قولهم إذا ما تكلموا في شئون الدنيا ومتعها لأنها منتهى آمالهم، ومبلغ علمهم، وأصل حبهم، ومن أحب شيئا أجاد التعبير عنه، أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها، لأنهم لا يهتمون بها، بل هم غافلون عنها، ومن شأن الغافل عن شيء ألا يحسن القول فيه، ويبدو لنا أن تعلق الجار والمجرور بيعجبك أرجح، لأنه يتفق مع السياق إذ سياق الحديث في شأن الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويخدعون الناس بمعسول بيانهم مع أن نفوسهم مريضة، وليس في شأن الذين يحسنون الحديث عن شئونها المختلفة، بل إن بعض الذين يحسنون الحديث في شئون الدنيا لم يضيعوا أخراهم وإنما عمروها بالعمل الصالح، فهم جامعون بين حسنتي الدنيا والآخرة". (35)

الحاصل من كلام الشيخ أن الآية الكريمة تتحدث عن الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ويكذبون القول، ولا تتحدث عن الذين يحسنون الحديث، فيصدقون ولا يكذبون، وهذا عرف من أجل السياق القرآني، لأن سياق الآية الكريمة يدل على أن الحديث عن الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويخدعون الناس، فرجح الشيخ الطنطاوي أحد الأقوال التفسيرية بدلاية السياق القرآني كما هو واضح من كلامه.

المثال الثالث: قال الله عزّوجل:

"وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ" (36)

قال الشيخ الطنطاوي تحت هذه الآية الكريمة: "وقوله يبخلون من البخل وهو ضد الجود والسخاء، ومعناه: أن يقبض الإنسان يده عن إعطاء الشيء لغيره، وأن يحرص حرصا شديدا على ما يملكه من مال أو علم أو غير ذلك، ويرى جمهور المفسرين أن المراد بالبخل هنا البخل بالمال، لأنه هو الذي يتفق مع السياق، ويرى بعضهم أن المراد بالبخل هنا البخل بالعلم وكتمانه، وذلك لأن اليهود كتموا صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي جاءت بها التوراة، والذي نراه أن ما عليه الجمهور هو الأرجح، لأنه هو المتبادر من معنى الآية، وهو المتفق من سياق الكلام". (37)

الحاصل من كلام الشيخ أن المراد من البخل في الآية الكريمة البخل بالمال، وليس المراد البخل بالعلم وكتمانه، وذلك لأن سياق الآية الكريمة يدل على هذا، فرجح الشيخ الطنطاوي أحد الأقوال التفسيرية بدلاية السياق القرآني.

المثال الرابع: قال الله عزّ وجلّ:

"أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ" (38)

قال الشيخ الطنطاوي تحت هذه الآية الكريمة: "وظاهر من هذا الكلام المنقول عن ابن عباس أنها نزلت في شأن جماعة من المسلمين هذا شأنهم، ولعل مراده أن الآية تنطبق على صنيعهم وليس فعلهم هو سبب

نزولها، لأن الآية مسوقة للتوبيخ والذم، والذين يستحقون ذلك هم أولئك المشركون وأشباههم الذين أعرضوا عن الحق، وجهلوا صفات الله- تعالى-: قال الجمل بعد أن ذكر قول ابن عباس:" وتنزيل الآية على هذا القول بعيد جدا، لأن الاستحياء من الجماع وقضاء الحاجة في حال كشف العورة إلى جهة السماء، أمر مستحسن شرعا، فكيف يلام عليه فاعله ويذم بمقتضى سياق الآية"، وإذا فالذي يستدعيه السياق ويقتضيه ربط الآيات، كون الآية في ذم المشركين ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم، ثم ساق- سبحانه- ما يدل على كمال قدرته، وسابغ فضله، وشمول علمه". (39)

الحاصل من كلام الشيخ أن الآية الكريمة جاءت في سياق ذم المشركين ، ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم، وليس في شأن جماعة من المسلمين، لأن سياق الآية القرآنية واقتضاء ربط الآية الكريمة يدل على هذا، فرجح الشيخ الطنطاوي أحد الأقوال التفسيرية بدلاية السياق القرآني، ومن هنا عرفنا أن السياق القرآني يؤدي دورا كبيرا في تعيين المراد القرآني وفى ترجيح أحد الأقوال التفسيرية، والذي يبدو من تفسير الشيخ الطنطاوي للقرآن الكريم أنه اعتبر السياق القرآني مصدرا أصيلا من مصادر التفسير القرآني، وأصلا من أصول التفسير.

خاتمة البحث

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على النبي الأمين وعلى آله وصحبه وبارك وسلم، وبعد !

فهذا ماتيسر لي فى هذا البحث المتواضع، ومن خلال دراسة موضوع السياق القرآني وأثره فى "التفسير الوسيط " للطنطاوي – رحمه الله – ظهرت نتائج، وإني أوجز إليها فى النقاط الآتية :

1. اعتبر الشيخ الطنطاوي السياق القرآني فى تفسيره كمصدر من مصادر التفسير.
2. اتخذ الشيخ الطنطاوي السياق القرآني أصلا من أصول التفسير.
3. اعتبر الشيخ الطنطاوي السياق القرآني من إحدى المرجحات فى مختلف الأقوال التفسيرية.
4. نقد الشيخ الطنطاوي بالسياق القرآني آراء الآخرين.
5. قد استخدم الشيخ الطنطاوي السياق القرآني فى كثير من المجالات خلال تفسيره.

الهوامش والمصادر

1. طنطاوي، سيد محمد، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة.
2. المرجع السابق.
3. المرجع السابق.
4. BBC NEWS، عربي، وهذا لنك الخاص به:
https://www. bbc. com/arabic/middleeast/2010/03/100310_egypt_tantay_profile_tc2
5. مجد الدين المبارك الجزري الشهير بابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، "تحقيق: طاهر أحمد الراوي محمود أحمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى 1383 هـ - 1963م، 424/2"
وابن الأثير هو: "العلامة البارع البليغ مجد الدين أبو السعادات، المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الشافعي الجزري ثم الموصلي، المعروف بابن الأثير ولد سنة ٥٤٤ هـ، محدث أصولي فقيه لغوي بارع"، من مؤلفاته: " النهاية في غريب الحديث والأثر، وجامع الأصول في أحاديث الرسول، والإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف، جمع فيه بين تفسيري الثعلبي والزمخشري، والشافي في شرح مسند الشافعي، وغيرها". المتوفى سنة ٦٠٦ هـ.
انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ) المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت، ج: 4، ص: 141
"طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين بن على السبكي، دار هجر - مصر، الطبعة الثانية: 1407هـ، 8/366"
6. هو "أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن حبيب الرازي القزويني، كان شافعيا ثم تحول مالكيا، كان محدثا متقنا، ونحويا على طريقة أهل الكوفة، ولغويا بارعا، وأحد أئمة الأدب المرجوع إليهم، صنف جامع التأويل في تفسير القرآن، وغريب إعراب القرآن، ومعجم مقاييس اللغة، والصاحبي في فقه اللغة وغيرها"، قال الذهبي أصح ما قيل في وفاته سنة 395هـ
7. ابو الحسين بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دارالجيل - بيروت، 1420هـ - 1999م، ج: 3، ص: 117
8. " أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي الشافعي، إمام جليل، رأس في اللغة والفقه، جمع فنون الأدب وحشرها، ورفع راية العربية ونشرها، ولد سنة ٢٨٢ هـ، صنف التقريب في التفسير، والتهذيب في اللغة، وتفسير مختصر ألفاظ المزني، وعلل القراءات وغيرها". توفي سنة 370هـ.
"وفيات الأعيان": 334/4، "معجم الأدباء": 112/5، "سير أعلام النبلاء": 315/16، "البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة"، ص: 186.
9. هو "القاضي أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله البغدادي، مولى الأزد، كان أبوه مملوكا روميا إمام حافظ مجتهد متفنن، دين حسن الاعتقاد، ولي قضاء طرسوس، كان يقسم الليل أثلاثا، فيصلي ثلثه وينام ثلثه، ويضع الكتب ثلثه، صنّف المصنفات النافعة الحسنة، منها: غريب القرآن، ومعاني القرآن والقراءات، والناسخ والمنسوخ، والإيمان، والطهارة، والأموال"، وغيرها. توفي بمكة سنة 224: الهج وقيل غير ذلك.
الطبقات الكبرى: 7/ 355، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد (المتوفى: 230هـ تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1990م. تاريخ بغداد وذيوله: 12/ 403، أبو بكر أحمد بن علي بْن ثابت بْن أَحْمَد بْن مهدي الخطيب البغدادي

(المتوفى: 463هـ الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، 1417هـ، سير أعلام النبلاء: 490/10.

10. محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، تهذيب اللغة، (المتوفى: 370هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، 2001م، 9/ 234

11. "وهو من إعداد مجموعة من العلماء المعاصرين، أصدره مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية"

12. المعجم الوسيط ص: 330

13. دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير. دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير، وهي رسالة ماجستير غير مطبوعة، مقدمة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ص 62

14. نظرية السياق القرآني دراسة تأصيلية نقدية دلالية، للدكتور المثنى عبد الفتاح محمود، دار وائل، الأردن، الطبعة الأولى: 2008م، ص: 15

15. هو "عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي، واللبناني نسبة إلى بنانة (من قرى منستير إفريقية) وهو فقيه أصولي"، قدم مصر وجاور بالأزهر، له حاشية على شرح المحلى في أصول الفقه، في جزأين، توفي سنة ١١٩٨ الهج، "الأعلام للزركلي"، 302/3.

16. حاشية البناني على جمع الجوامع، 20/1.

17. سورة الشعراء:26/ 192-195

18. الإمام الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: 204هـ)، الرسالة، المحقق: أحمد شاكر، الناشر: مكتبه الحلبي، مصر، الطبعة: الأولى، 1358هـ/1940م، ص: 42

19. سورة لقمان:13/31

20. رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ). لقمان: 12. برقم: 3429. ومسلم في كتاب الإيمان، باب صدق الإيمان وإخلاصه، برقم: 242.

21. تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ)، مجموع الفتاوى، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية عام النشر: 1416هـ/1995م، 196/15

22. " بدر الدين أبو عبد الله محمد بن بهادر عبد الله الزركشى، ولد سنة 745هـ، وهو تركي الأصل، عني بالتفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه والأصول، درس وأفتى، وكان منقطعا في منزله لا يتردد إلى أحد إلا إلى سوق الكتب، وله تصانيف كثيرة في فنون عديدة، فمنها: تفسير القرآن العظيم وصل فيه إلى سورة مريم، والبرهان في علوم القرآن، والبحر المحيط في أصول الفقه، وشرح جمع الجوامع والنكت على ابن الصلاح، وغيرها، توفي سنة 794 هـ ". الدر الكامنة: ج: 5، ص: 133؛ طبقات المفسرين للداودى: طبقات المفسرين، ج: 2، ص: 162، "لمحمد بن على بن أحمد الداودى، ت: 945هـ، مراجعة: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية . بيروت . الطبعة الأولى: 1403 هـ 1983م".

23. البرهان في علوم القرآن، 172/2

24. المرجع السابق، 200/2

25. هو "الإمام ولي الله أبو عبد العزيز أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي، فقيه حنفي، من المحدثين، ولد بالهند سنة 1110 هـ، من مصنفاته: الفوز الكبير في أصول التفسير، وحجة الله البالغة، وشرح تراجم أبواب البخاري، وغيرها". توفي سنة 1176هـ، "أبجد العلوم لصديق حسن خان" (241/3)، الأعلام (149/1).
26. الفوز الكبير في أصول التفسير، ص: 111
27. هو "محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة المنار، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، ولد بطرابلس الشام سنة ١٢٨٢ الهج، رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وأصدر مجلة (المنار) لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي"، من مصنفاته:" تفسير المنار، وصل فيه إلى الآية ١٠٧ من سورة يوسف، والوحي المحمدي، وحقوق النساء في الإسلام، وشبهات النصارى وحجج الإسلام، وغيرها". توفي بحادث سيارة بمصر سنة 1354هـ "، الأعلام، 126/6
28. مقدمة تفسير المنار، 22/1، "وقد نبه أنَّ هذه المقدمة للتفسير مقتبسة من درس أستاذه محمد عبده بالمعنى"، مع البسط والإيضاح
29. سورة البقرة: 2/ 118
30. سورة النساء: 153/4
31. سورة البقر:2/ 116
32. سورة التوبة: 9/ 30
33. الطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، 260/1
34. سورة البقرة: 204/2
35. الطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، 240/1
36. سورة آل عمران: 180/3
37. الطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، 351/2
38. سورة هود: 11/ 5
39. الطنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، 162/7